تَأمُّلاتٌ في سُورَةِ الكَوْثَرِ المُبارَكَةِ

(دراسة اسلوبية)

أحمد حسين خشان

ديوان الوقف الشيعي – العراق

فحوى البحث

دراسة تناولت النص القرآني في (سورة الكوثر) على المنهج الاسلوبي الذي يأخذ بمعطيات اللغة العامة، من الامكانيات الجمالية والتركيبية، بعيداً عن تطبيق معايير الاسلوبية الغربية المعاصرة على النص القرآني، والاخذ بنظر الاعتبار خصوصية هذا النص الكريم من حيث المرسِل والمتلقي والرسالة، وتكريس المفاهيم والتطبيقات الاسلوبية في الموروث البلاغي العربي. والدراسة موزعة على اربعة مباحث شملت المستويات اللغوية الاربعة هي:

- المستوى الصوتي.
- المستوى الصرفي.
- المستوى النحوي.
- المستوى الدلالي.

التمهيد: عرض سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾.

التعريف بالسورة:

سورة مكية[١]، وقيل مدنية،[٢] من المفصل ،آياتها ثلاث[٣]، ترتيبها بالمصحف الثامنة بعد المائة ،نزلت بعد سورة العاديات[٤]، وهي أقصر سورة في القرآن. لم يذكر لفظ الجلالة فيها، الكوثر هو فاطمة الزهراء البتول؛ كما رجحت كثير من التفاسير المعتبرة[٥].

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٦م، ٤/ ٢٩٠.

(٢) تفسير الميزان، الطباطبائي، منشورات جماعة المدرسين، قم، ١٤١٣ه، ٢٠/ ٣٦٩.

(٣) ينظر: تفسير مجمع البيان، الطبرسي، ١٠/ ٤٥٨، و تفسير القرطبي، ٢٠/ ٢١٦، وتفسير البيضاوي، ٥/ ٥٣٦.

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ١٠/ ٢١١، و البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٣.

(٥) ينظر: الذرية الطاهرة النبوية، محمد بن أحمد الدولابي، ٦٧، وتفسير جوامع الجامع، الطبرسي، ٣/ ٨٥٥، والأنوار البهية، عباس القمي، ٥٧، وتفسير الميزان، الطباطبائي، ٢٠/ ٣٧١، والخصائص الفاطمية، محمد باقر الكجوري، ١/ ٢٣٨. وتفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ٣٢/ ١٢٤. وفيه يقول: ((والقول الثالث: أولاده، قالوا لأن هذه السورة انما نزلت رداً على من عابه ﷺ بعدم الأولاد. فالمعنى: انه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان. فانظر كم قتل من اهل البيت ﷺ ثم العالَم ممتلىء منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به. ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا ﷺ والنفس الزكية وأمثالهم)).

سبب نزول السورة:

قال ابن عباس[٦]: نزلت في العاص بن وائل (والد عمرو) وذلك أنه رأى رسول الله يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس فلما دخل العاص قالوا له: من الذي كنت تحدث؟. قال: ذاك الأبتر يعني النبي ﷺ وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله

(٦) ينظر: سيرة ابن إسحق، ٥/ ٢٢٩، والسيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٢٦٥، وأسباب نزول الآيات، الواحدي النيسابوري، ٣٠٧.

ابن رسول الله وكان من خديجة وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتر فأنزل الله تعالى هذه السورة وفي رواية أخرى، حدثني يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله قال دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه[٧] فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ إلى آخر السورة[٨] وقال عطاء عن ابن عباس: كان العاص بن وائل يمر بمحمد ويقول: إني لأشنؤك وإنك لأبتر من الرجال فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ من خير الدنيا والآخرة[٩].

محور موضوع السورة:

يَدُورُ مِحْوَرُ السُّورَةِ حَوْلَ فَضْلِ اللَّهِ العَظِيمِ عَلَى نَبِيِّهِ الكَرِيمِ، بِإِعْطَائِهِ الخَيْرَ الكَثِيرَ وَالنِّعَمَ العَظِيمَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمِنْهَا فاطمة الكَوْثَرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِن الخَيْرِ العَظِيمِ العَمِيمِ[١٠]، وَقَدْ دَعَت الرَّسُولَ إلى إِدَامَةِ الصَّلَاةِ، وَنَحْرِ الهَدْيِ شُكْرَاً لِلَّهِ[١١]، هذه السورة خالصة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى، وسورة الشرح. يُسرِّي عنه ربه فيها، ويَعِدُه بالخير، ويوعد أعداءه بالبتر، ويوجهه إلى طريق الشكر، ومن ثم فهي تمثل صورة من حياة الدعوة، وحياة الداعية في أول العهد بمكة. صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ ودعوة الله التي يبشر بها؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه.

كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان. وحقيقة الضلال والشر والكفران.. الأولى كثرة وفيض وامتداد.

(٧) السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٦م، ٢/ ٨٤.

(٨) أسباب نزول الآيات، الواحدي النيسابوري، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م، ٣٠٧.

(٩) ينظر: عين العبرة في غبن العترة، أحمد آل طاووس، دار الشهاب، قم، ط١، (د. ت)، ٧٤.

(١٠) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ٥/ ٥٢٩.

(١١) ينظر: تفسير ابن كثير، ٤/ ٣٠٨، وتفسير الثعالبي، ٥/ ٦٣٢، وتفسير الدر المنثور، السيوطي، ٦/ ٧٠.

والثانية قلة وانحسار وانبتار[١٢].

المبحث الأول: المستوى الصوتي:

تتعلق المقاييس الصوتية بخصائص الصوت من جهة وبالتوازنات الصوتية من جهة أخرى، وعن التوازنات يتولَّد نسق إيقاعي مطرد[١٣]، وتأتي أهمية الدراسة الصوتية للنص القرآني في الكشف عن الطاقة التعبيرية الموجودة في آي الذكر الحكيم القائمة على التناسب والانسجام والالتئام، ويعدُّ التحليل الصوتي عنصراً من عناصر المفردة والجملة والآية القرآنية المستقلة بذاتها أو المتصلة بغيرها من الآيات، و تبرز هذه الأهمية مرة أخرى في الكشف عن القيم الجمالية التي ترشد إلى فهم النص على نحو أمثل، ولا خلاف أن مادة الصوت هي المظهر النوعي الذي يتبيَّن مواقع التلقي في العمل المعرفي لمدونة القرآن الكريم وما تعكسه من انفعال نفسي وتأثري، مدّاً أو غنّةً أو ليناً أو شِدّةً[١٤]، وما لذلك من أثر في شدِّ المتلقي وجعله مأخوذاً بجرس الألفاظ، وأنغام التراكيب إصغاءً وإنصاتاً، ويستخلص الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) مقياساً صوتياً للأسلوب القرآني بقوله: ((التلاؤم نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف))[١٥]، وقد عدَّ الباحثون هذا التلاؤم بين المعاني والصياغة القرآنية وجها من وجوه الإعجاز القرآني، وأن هذا التلاؤم والتناسب ليس وقفاً على المعاني بل يتعداه إلى الألفاظ والصور والإيقاع[١٦].

تتألف اللغة العربية من مجموعة محدودة من الأصوات، لكل صوت منها حرف يدل عليه عند الكتابة، إذ أن كل كلمة تتكون من أجزاء صغرى هي

(١٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٩٩٢م، ١٠/ ٢٦١.

(١٣) ينظر: الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، محمد العمري، منشورات أفريقيا الشرق، بيروت/ المغرب، ٢٠٠١م، ١٥ وما بعدها.

(١٤) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ٢٦٩.

(١٥) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م، ١/ ٣٦.

(١٦) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ط١، ١٩٨٠م، ١٦٤ وما بعدها.

الأصوات، واختلاف الصوت يؤدي إلى اختلاف المعنى، وللغة العربية أصواتها الخاصة، وهي تمثل جزءا من شخصيتها أو نظامها العام، وأصوات اللغة هي أحد المستويات التي يتألف منها البناء اللغوي، وتدرس اليوم في علم خاص يسمى (علم الأصوات)، يحدد لكل صوت (مفرد) مخرجه وصفته.

وتجدر الإشارة إلى أن الإيقاع المنغم يبدو واضحاً في الآيات والفواصل في خصوصية من النظم المفرد يختلف عن محددات الشعر من الأوزان والقوافي، ذلك أن الأسلوب القرآني نسيج وحده في اللغة والبيان والمعاني والبديع، ونوعه الغني متوحِّد في قيمه الصوتية الحرة، وهو إيقاع في نطاق التوازن لا الموزون، ذلك أن التوازن في الإيقاع إنما يقع في النثر، أما الموزون عند العرب فيقع في شعرهم، والذي في القرآن من إيقاع متوازن لا موزون[١٧]، ويؤدي هذا الإيقاع المتوازن إلى المزيد من المعاني، والتكثيف من الدلالات، والاتساع في منظور الرؤية والتأمل في النص الكريم ((النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً، فقد أُعفي التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية والفواصل المتقاربة في الوزن))[١٨]، والموسيقى الداخلية للنص الكريم تُبْعَثُ من الحركة والحرف واللفظ المفرد في كل تعبير قرآني ((وإننا ندرك كل الإدراك أن الموسيقى الداخلية لَتُبْعَثُ في النص الكريم من الحركة ومن الحرف ومن اللفظ المفرد في كل آية فتُلقي ظلالها بجرسها ونغمها على التركيب فيستقل بتصوير لوحة كاملة يكون فيها اللون زاهياً أو شاحباً، وفيها الظل شفيفاً أو كثيفاً))[١٩]، ويحدث هذا كله في فضاءات تعصف فيها طاقات تعبيرية من جرَّاء

(١٧) البيان في روائع القرآن، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ٢٦٩.

(١٨) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٨، ١٩٨٣م، ١٠٢.

(١٩) من أساليب التعبير القرآني، طالب محمد إسماعيل الزوبعي، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٣٥٩.

تضافر التوازنات الصوتية بين الألفاظ المتسقة مع معانيها بمخرجات إيقاعية ساحرة ينحسر عنها البيان في النظر إليها مكتوبة، واستشعارها منطوقة ومسموعة للوقوف على جمال هذه القيم الصوتية في بنية موسيقية مغايرة، وبوصفها تتعلق مباشرة بنوع من المعاني يسمى المعاني الطبيعية ((التي لا توصف آثارها بأنها عرفية ولا ذهنية لأنها في الواقع مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع على الوجدان تدركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة))[٢٠].

إن لغة القرآن في نظمها وتركيبها تعكس خصائص مبتكرة في الجزالة والإحكام في توازن صوتي يعبر عن دلالات دقيقة كانت من قبل خفية على البال، وعصية على الفهم.

وتشير الدراسات التراثية، خاصة التأسيسية منها، إلى هذه الموازنات الصوتية التي من الممكن لمس أثرها في النص القرآني ((فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلُصَ له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه))[٢١].

ومما تقدم يخلص البحث إلى نتيجة مفادها؛ ((أن الحرف العربي المكتوب (صوت منطوق) واللغة (رموز) والقرآن (تلاوة) ولو اجتمعت هذه الأطراف تنتج لنا فكرة ناهضة في طور التنظير نَسِمُها بـ(النظم الصوتي) في الدلالة القرآنية ونهايتها بفاصلة -صوت- تحمل معنى الآية))[٢٢]، فالصوت العربي له صفات تمثل معناه في تركيب الكلمة، والكلمة بأصواتها تحمل معنى غير المجرد، حيث السياق الذي ترد فيه فتكون دلالة صوتية ذات معنى محدد جديد قد يغيرها السياق أو تغيِّر معنى السياق وفق تركيب الجملة أو (الآية) مما يعطي سمة أسلوبية لهذا النص القرآني عن سواه من نفس القرآن

(٢٠) البيان في روائع القرآن، تمام حسان، ٢٧٥.

(٢١) بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ضمن ثلاث رسائل، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٩١م، ٧٠.

(٢٢) سورة الشمس، دراسة أسلوبية، أحمد حسين خشان، مجلة المصباح، العتبة الحسينية المقدسة، العدد الثامن، ٢٠١٢م، ٢٨٥.

فتختلف السور على وفق ما تحمل بين أصواتها معنى لذلك.

البناء الصوتي للكلمات:

تتألف المفردة الواحدة في العربية من مقاطع صوتية مختلفة بين القصيرة والمتوسطة والطويلة، ويتكون المقطع الواحد من متحرِّك وصامت (ساكن)، فالمقطع القصير يتكون من متحرك وساكن ويرمز لهذا المقطع بـ (-.)، ويرمز للمقطع المتوسط بـ (- -.)، ويرمز للمقطع الطويل بـ (- - -.) ومثل هذا الرمز لحروف المد على قول سيبويه الذي ينقله الزركشي: ((إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والواو والياء... لأنهم أرادوا مدَّ الصوت))[٢٣]، فلو تناولنا مفردات الآية الأولى من سورة الكوثر ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، لوجدناها تتكون من مقاطع هي: (إِنْ، نَا، أَعْ، طَيْ، نَـــا، كَلْ، كَوْ، ثَرْ) وكل هذه المقاطع الثمانية قصيرة وموحدة تتسق في تسارع مع الجو العام للآية التي تؤكد حقيقة وقوع الخبر وزف البُشرى للرسول الأكرمﷺ في العطاء والشفاء.

وفي الآية الثانية ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ فنجد أن مقاطع هذه الآية يختلف عن مقاطع الأولى في الصوت؛ لاختلاف المراد بين الآيتين في السياق والمعنى، ومقاطع هذه الآية على هذه الشاكلة (فَصَلْ، لِرَبْ، بِكَ وَنْ، حَرْ) وهذه مقاطع أربعة مختلفة في الصوت، فالأول والثاني (مقطعان متوسطان)، والثالث (مقطع طويل)، والرابع (مقطع قصير).

وفي الآية الثالثة ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ فمقاطعها خمسة توزعت على النحو الآتي: الأول (مقطع قصير)، والثاني (مقطع متوسط)، والثالث (مقطع طويل)، والرابع والخامس (مقطعان قصيران).

فيكون مجموع المقاطع الصوتية في هذه السورة (سبعة عشر مقطعاً صوتياً)، منها: (اثنا عشر مقطعاً صوتياً قصيراً)، و (وثلاثة مقاطع صوتية متوسطة)، و

(٢٣) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م، ١/ ٥٣.

(مقطعان صوتيان طويلان)، ويتضح مما سبق هيمنة المقطع القصير على الكلام في سورة الكوثر، ودلالة ذلك أن هذه المقاطع القصيرة لا تتطلب نَفَساً طويلاً أو تراخياً عن الرسول محمدﷺ ونصرته وهو في حال من الهم والقلق والحيرة، فأنزل الله سبحانه وتعالى السكينة والبشرى (بالكوثر) سراعاً ونجدةً ونصرةً، فزادت هذه المقاطع الصوتية القصيرة في السورة من حدَّة الانتباه، وإثارة السمع بحكم وضوح المقطع القصير، وبساطة تكوينه، وحركته الإيقاعية البارزة.

أما المقاطع الثلاثة المتوسطة فهي تنسجم مع ما يميل إليه الكلام العربي شعراً أو نثراً من إيثار المقطع المتوسط بوجه عام[٢٤].

أما المقطع الطويل من موسيقى الآيات فهي التي تجعل الأسماع تشعر باختلاف ما يتلى في هذه الآيات والتسري فيها، وكذلك للتفصيل والتفريع.

إذن فلكل آية نظاماً مقطعياً خاصاً، ولم يكن مطرداً في كل الآيات القرآنية الكريمة.

معاني أصوات الحروف:

لا شكّ في أن اللغة العربية من أدق اللغات احتفاظا بالمعاني الفِطريّة للحروف، أي بحركة الإنسان الأول في الإشارة إلى المعاني؛ ذلك أن كثيرا من الحروف لها دلالة في ذاتها قبل أن تقترن بغيرها من الحروف؛ فمن ذلك دلالات النداء والتعجب و التأوّه والأنين و الإشارة و التنبيه و غير ذلك من المعاني التي تدعو إليها معاناة الحياة الفطرية الأولى.

وفي النص القرآني تتضافر هذه الأصوات داخل المفردة لتشكل مداليل قصدية تتماهى مع الجو العام للآية في توظيف إيقاعي يعمل على إغناء المعنى وتأكيد الوضوح مما يحدث قوة في الإنصات في نظم صوتي أخّاذ، وهذا مُتَفَشٍّ في القرآن ((لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة،

(٢٤) موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م، ١٧١.

والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير وغير ذلك))[٢٥].

ولو عدنا إلى أصوات المدِّ في سورة الكوثر لوجدنا وظيفتها إشاعة هالة من التعظيم والإجلال وشحن المزيد من الهيبة والإكبار بما يليق برب العالمين جل جلاله من جهة، وتبشير المصطفىﷺ والتخفيف عنه، وإزالة الهموم عنهﷺ، فضلاً عن فضاء التطريب، وكثيراً ما يبرز غرض التعظيم في الآية الأولى من سورة الكوثر التي يكون ضمير المتكلم منها عائداً على الله عز وجل، وتسهم الفتحة الطويلة على نون الجماعة في (إنـــــا) و (أعطينـــــــا) في إشاعة هالة من الجلال والبهاء، مشفوعة بجو من الطمأنينة والأمان فتُشعر الرسول الأكرمﷺ بالراحة وتمنحه فيضاً من الإحساس بالسكينة والدعة.

وفي طليعة الأصوات في السورة صوت (الهمزة) وهو من الأصوات الانفجارية المسماة بالجرسية، لكونه من الأصوات العالية، ولهذا الصوت دور فاعل في تجسيد جو من الروحانية المقدسة التي تمتاز بالعظمة والعدل والقوة والكبرياء، والتي يستظل بها قلب المؤمن بالأمان، وهي بمجملها صفات الله عز وجل، وتكرر صوت الهمزة في السورة المباركة خمس مرات، في الآية الأولى مرتين، والآية الثالثة ثلاث مرات.

ويأتي صوت (النون) في سورة الكوثر سبع مرات، وصوت النون ((ذو الوضوح السمعي المميز في الآيات لتزيدها وضوحاً ورنيناً يُحدِث قوة في الإسماع، وترديداً زمنياً طويلاً))[٢٦]، فضلاً عن صوت الغنة فيه، وتكرار صوت النون -ذي الوضوح السمعي العالي -يمنح الكلام قوةً في الطرح، وإثراءً في العرض، وجلاءً في التعبير، وجمالاً في الإيقاع، ولصوت النون أثر في حسم الموقف لصالح الحق الثابت.

أما عن صوت (اللام)، فهو صوت مجهور، ذو وضوح سمعي ((وهو من

(٢٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ١٦٩.

(٢٦) وظائف الصوت اللغوي، أحمد كشك، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٣م، ١٣.

أخف الحروف على اللسان وأحسنها انشراحاً))[٢٧]، وتكراره يُحدِث نظماً موسيقياً محبباً لأنه رقيق في السمع مما أكسب النص الكريم إيقاعاً عذباً وصوتاً عالياً، وتعاقب اللامات في سورة الكوثر زادها عذوبة في الجريان، وسلاسة في النطق.

وعن صوت (الراء) فهو يتميز بأنه صوت تكراري، والتكرار صفة قوة ((ومنها (المكرر) وهو حرف شديد))[٢٨]، ولصوت الراء صفة تكرارية في سلسلة متتابعة فيحدث هذا إيقاعاً منسجماً، ومما زاد من جمال صوته ورقته كون الفاصلة في آيات سورة الكوثر جاءت منتهية بفاصلة رائية (الكوثر، انحر، الأبتر).

وصوت (الطاء) من الأصوات المفخمة، إذ أسهم هذا الصوت في إبراز المعنى بوضوح وتجسد دور صوت الطاء في مصاحبة المعنى والغرض الذي عبرت عنه السورة، وهو تجسيد لضخامة الحدث، ويبين صوت الطاء المدى اغير المحدود لعطاء الله سبحانه وتعالى.

ومثل صوت (الطاء) صوت (الصاد)، إذ يحمل الدلالة نفسها، فضلاً عن كونه دالاً على حركة محددة متصلة تنضوي تحت عنوان الصلاة وأفعالها، واتصالها بالله عز وجل.

وصوت (الشين) في (شانئك) فهو صوت يدل على الانتشار وموافق لفعل التفشي في تأصيل روح الكراهية والبغضاء في نفس العاص بن وائل السهمي.

وصوت (الباء) في (ربك) فهو صوت انفجاري مجهور يمنح الكلام قوة وتأكيداً وحزماً في تكثيف المعنى باتجاه العبادة (لربك)، أما صوت (الباء) في (الأبتر) فدلالته التعنيف لعبادة العاص بن وائل ومن معه من المشركين من المكاء والتصدية، ونحرهم للأصنام، فصوت الباء في سورة الكوثر صوت يدل على جمع متوقف.

الفاصلة في سورة الكوثر:

تعددت حدود الفاصلة في القرآن

(٢٧) الرعاية، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار الكتب العربية، القاهرة، (د. ت)، ١١٠.

(٢٨) الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ٤٣٥.

الكريم في أقوال كثير من العلماء الذين ألَّفوا في علوم القرآن، فقد عرَّفها الزركشي (ت ٧٩٤هـ) بأنها ((كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع))[٢٩]، ويبدو أن هذا التعريف غير دقيق لاشتماله على تشبيه -في ما أرى -غير لائق؛ من حيث الاستناد إلى محددات الشعر من قوافٍ، وفواصل النثر من الأسجاع، ولكن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) قد طوَّر من تعريف الفاصلة بقوله إن الفاصلة هي: ((حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني))[٣٠]، بأنها حروف لها صوت ودلالة، إلى جانب وظيفتها المتعلقة بفهم المعاني في الآيات الكريمة، ذلك أن لها دلالة صوتية يُعرف بها الغرض ((هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن الكريم ما هي إلا صور تامة للأبعاد التي تأتي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراء ه من العجب مذهب))[٣١]، ويبدو أن الرافعي قد حدد جميع ما يلزم وجود الفاصلة من أثر صوتي، ووظيفي، حتى لا يختل الإيقاع بين الآيات الكريمة.

والفواصل الثلاث في سورة الكوثر (الكوثر، وأنحر، الأبتر) توجيه للأثر السمعي إلى الجرس الصوتي، والتوليف اللفظي، ولفت الانتباه إلى التنوع الدلالي، والارتباط العضوي بين مضمون الآيات وخواتيمها، ولإظهار الجانب الموسيقي في الفواصل، ومراعاة متطلبات الإيقاع ومقتضيات التلاؤم النغمي راعت ما يلي:

أولاً: إن جميع الفواصل في آخر آيات سورة الكوثر قد انتهت بحرف (الراء) ذي الصفة التكرارية الموحدة في أدائها والتي تفيد الانسجام مع المعاني المتسقة.

ثانياً: إن الخطاب في سورة (الكوثر) موجه إلى الرسول الأكرم ﷺ بضمير (الكاف) المتصل، فأسهم هذا التوجيه مع الفاصلة في إنتاج توليف لفظي منغم أخاذ.

(٢٩) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١/ ٥٢.
(٣٠) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٣، (د.ت)، ٢٩٠.
(٣١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ٢١٦.

ثالثاً: التنوع الدلالي في فواصل سورة (الكوثر) من كوثر ونعيم لا ينضب، إلى شكر بالصلاة والنحر لديمومة هذا العطاء، إلى (الأبتر) الحقيقي الذي أخزاه الله في الدنيا والآخرة. وجملة هذه السمات أحدثت ((الانسجام الموسيقي الذي فيه تؤلف العبارة من كلمات متسعة ذات حركات وسكنات يشعر المرء عند تلاوتها بما يكمن وراء هذا النظام من موسيقى واتساق))[٣٢]، ويمكن القول إن الفواصل في سورة (الكوثر) كان لها أبلغ الأثر في الانسجام الموسيقي والوضوح والاتفاق مع المعاني الواردة في السورة الكريمة.

المبحث الثاني: المستوى النحوي:

يقوم المستوى النحوي على أمرين هما: التركيب والإعراب، فالجملتان: (ليلى زارت فدوى) و (فدوى زارت ليلى) متشابهتان في ثلاثة عناصر على مستويات ثلاثة هي: الأصوات والصرف والمعاني، لكن الجملتين تختلفان في أمر واحد هو ترتيب الكلمات فيهما، وهذا الترتيب يعود إلى طريقة التركيب، والتركيب عنصر آخر من عناصر النظام اللغوي، وهو عنصر له قواعد مقررة في كل لغة ضمن (علم النحو)، ومن الواضح أن هذا التركيب القواعدي على الرغم من تشابه العناصر الثلاثة أدى إلى الاختلاف في المعنى، فالزائر في الأولى هو المزور في الثانية. وتركيب الجمل يقتضي ترتيبا معينا ليس من السهل كسره ومن أمثلة ذلك موضوع الإضافة في النحو الذي يقوم على تقديم المضاف على المضاف إليه، فنقول: (مركز العلم) ولا نقول: (العلم مركز).

ويلعب الإعراب دورا مهما في المستوى النحوي لتحديد المعاني ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [سورة فاطر: ٢٨]، ولهذا السبب يكون التسكين وإسقاط الإعراب من الكلام نقصاً ومأخذاً ولذلك لا بد من الاجتهاد في تعلم قواعد الإعراب، ومحاولة الالتزام به عند القراءة والكتابة.

(٣٢) ينظر: من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٣م، ٢٤٥، والفاصلة القرآنية، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٢م، ٥١.

في سورة (الكوثر)، افتتح سبحانه وتعالى الكلام بحرف التأكيد، للاهتمام بالخبر، وللإشعار بأن المعطى شئ عظيم.. أي: إنا أعطيناك بفضلنا وإحساننا -أيها الرسول الكريم -الكوثر، أي: الخير الكثير وافتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر. والإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبيﷺ كما تقدم في﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [سورة القدر: ١]. والكلام مسوق مساق البشارة وإنشاء العطاء لا مساق الإخبار بعطاء سابق، وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم.

وأريدَ من هذا الخبر بشارة النبيﷺ وإزالةُ ما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه: هو أبتر، فقوبل معنى الأبتر بمعنى الكوثر، إبطالاً لقولهم.

وقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ اعتراض والفاء: للتفريع على هذه البشارة بأن يشكر ربه عليها، فإن الصلاة أفعال وأقوال دالة على تعظيم الله والثناء عليه وذلك شكر لنعمته.

وناسب أن يكون الشكر بالازدياد مما عاداه عليه المشركون وغيرهم ممن قالوا مقالتهم الشنعاء: إنه أبتر، فإن الصلاة لله شكر له وإغاظة للذين ينهونه عن الصلاة كما قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾[سورة العلق: ٩ -١٠]، لأنهم إنما نَهَوْه عن الصلاة التي هي لوجه الله دون العبادة لأصنامهم، وكذلك النحر لله.

والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ دون: فصلِّ لنا، لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه.

وإضافة (رب) إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبيﷺ وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يربُّه ويرأف به.

ويتعين أن في تفريع الأمر بالنحر مع الأمر بالصلاة على أن أعطاه الكوثر، خصوصية تناسب الغرض الذي نزلت السورة له، ألا ترى أنه لم يذكر الأمر بالنحر مع الصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٩٧ -٩٨].

ويظهر أن هذه تسلية لرسول ﷺ عن صدّ المشركين إيّاه عن البيت في الحديبية، فأعلمه الله تعالى بأنه أعطاه خيراً كثيراً، أي قدره له في المستقبل وعُبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه، فيكون معنى الآية كمعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[سورة الفتح: ١]، فإنه نزل في أمر الحديبية فقد قال له عمر بن الخطاب: أفتح هذا؟. قال: نعم.

وهذا يرجع إلى ما رواه الطبري عن قول سعيد بن جبير: إن قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾أمر بأن يصلي وينحر هديه وينصرفَ من الحديبية.

وأفادت اللام من قوله: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ أنه يُخص الله بصلاته فلا يصلي لغيره. ففيه تعريض بالمشركين بأنهم يصلون للأصنام بالسجود لها والطواف حولها.

وعطف ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾على ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ يقتضي تقدير متعلِّقه مماثلاً لمتعلِّق ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ لدلالة ما قبله عليه كما في قوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ [سورة مريم: ٣٨]، أي: وأبصر بهم، فالتقدير: وانحر له. وهو إيماء إلى إبطال نحر المشركين قرباناً للأصنام فإن كانت السورة مكية فلعل رسول الله ﷺ حين اقترب وقت الحج وكان يحج كل عام قبلَ البعثة وبعدها قد تردد في نحر هداياه في الحج بعد بعثته، وهو يود أن يُطعم المحاويج من أهل مكة ومن يحضر في الموسم ويتحرجُ من أن يشارك أهل الشرك في أعمالهم فأمره الله أن ينحر الهدي لله ويطعمها المسلمين، أي لا يمنعك نحرهم للأصنام أن تنحر أنت ناوياً بها تنحره أنه لله.

وإن كانت السورة مدنية، وكان نزولها قبل فرض الحج كان النحر مراداً به الضحايا يومَ عيد النحر ولذلك قال كثير من الفقهاء إن قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ مراد به صلاة العيد، ورُوي ذلك عن مالكٍ في تفسير الآية وقال: لم يبلغني فيه شيء[٣٣].

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾:

استئناف يجوز أن يكون استئنافاً

(٣٣) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، (د. ت)، ١٦/ ٤٠١.

ابتدائياً. ويجوز أن تكون الجملة تعليلاً لحرف (إنّ) إذا لم يكن لرد الإنكار. ويكثر أن يفيد التعليل كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة البقرة: ٣٢].

واشتمال الكلام على صيغة قصر وعلى ضمير غائب وعلى لفظ الأبتر مؤذن بأن المقصود به ردُّ كلام صادر من معيَّن، وحكايةُ لفظٍ مرادٍ بالرد، قال الواحدي: قال ابن عباس: إن العاصي بن وائل السهمي رأى رسول الله ﷺ في المسجد الحرام عند باب بني سهم فتحدث معه وأناسٌ من صناديد قريش في المسجد فلما دخل العاصي عليهم قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه فقال: ذلك الأبترُ، وكان قد توفّي قبل ذلك عبدُ الله ابنُ رسول الله ﷺ بعد أن مات ابنه القاسم قبلَ عبد الله فانقطع بموت عبد الله الذكورُ من ولده ﷺ يومئذ، وكانوا يَصِفون من ليس له ابن بأبتر فأنزل الله هذه السورة، فحصل القصر في قوله ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ لأن ضمير الفصل يفيد قصر صفة الأبتر على الموصوف وهو شانئ النبي ﷺ قصرَ المسند على المسند إليه، وهو قصر قلب، أي هو الأبتر لا أنت.

فقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ اقتضت صيغة القصر إثبات صفة الأبتر لشانئ النبي ﷺ ونفيها عن النبي ﷺ وهو الأبتر بمعنى الذي لا خير فيه.

ولكن لما كان وصف الأبتر في الآية جيء به لمحاكاة قول القائل: (محمد أبتر) إبطالاً لقوله ذلك، وكانَ عرفهم في وصف الأبتر أنه الذي لا عقب له تعيّن أن يكون هذا الإبطال ضرباً من الأسلوب الحكيم وهو تلقي السامع بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أن الأحقَّ غيرُ ما عناه من كلامه كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٩]. وذلك بصرف مراد القائل عن الأبتر الذي هو عديم الابن الذكر إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو الناقص حظّ الخير، أي ليس بنقص للمرء أنه لا ولد له لأن ذلك لا يعود على المرء بنقص في

صفاته وخلائقه وعقله. وهب أنه لم يولد له البتة، وإنما اصطلح الناس على اعتباره نقصاً لرغبتهم في الولد بناء على ما كانت عليه أحوالهم الاجتماعية من الاعتماد على الجهود البدنية فهم يبتغون الولد الذكور رجاء الاستعانة بهم عند الكبر وذلك أمر قد يعرض، وقد لا يعرض أو لمحبة ذِكر المرء بعد موته وذلك أمر وهمي، والنبيﷺ قد أغناه الله بالقناعة، وأعزّه بالتأييد، وقد جعل الله له لسان صدق لم يجعل مثله لأحد من خلقه، فتمحض أن كماله الذاتي بما عَلِمه الله فيه إذ جعل فيه رسالته، وأن كماله العرضي بأصحابه وأمته إذ جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وفي الآية نحسُّ الاستخدام التقديري لأن سوق الإبطال بطريق القصر في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ نفيُ وصف الأبتر عن النبيﷺ لكن بمعنًى غير المعنى الذي عناه شانؤه فهو استخدام ينشأ من صيغة القصر بناء على أن ليس الاستخدام منحصراً في استعمال الضمير في غير معنى معادة. والشانئ: المبغض وهو فاعل من الشناءة وهي البغض ويقال فيه: الشنآن، وهو يشمل كل مبغض له من أهل الكفر فكلهم بتر من الخير ما دام فيه شنآن للنبيﷺ فأما من أسلموا منهم فقد انقلب بعضهم محبة له واعتزازاً به(٣٤).

وقرأ الجمهور: (شانئك) بالألف؛ وابن عباس: شينك بغير ألف. فقيل: مقصور من شاني، كما قالوا: برر وبر في بارر وبار. ويجوز أن يكون بناء على فعل، وهو مضاف للمفعول إن كان بمعنى الحال أو الاستقبال؛ وإن كان بمعنى الماضي فتكون إضافته لا من نصب على مذهب البصريين. وقد قالوا: حذر أموراً ومزقون عرضي، فلا يستوحش من كونه مضافاً للمفعول، وهو مبتدأ، والأحسن الأعرف في المعنى أن يكون فصلاً، أي هو المنفرد بالبتر المخصوص به، لا رسول اللهﷺ. فجميع المؤمنين أولاده، وذكره مرفوع على المنائر والمنابر، ومسرود على لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر. يبدأ بذكر الله تعالى ويثني بذكرهﷺ، وله في

(٣٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ١٦/ ٤٠٥ وما بعدها.

الآخرة ما لا يدخل تحت الوصفﷺ وعلى آله وشرف وكرم[٣٥].

المبحث الثالث: المستوى الصرفي:

تتركب الأصوات في كلمات، وتتخذ الكلمات هيئة أبنية مخصوصة، وكل منها يأتي في صيغ متمايزة، فللفعل صيغ، وللاسم صيغ وللمشتقات صيغ وللتصغير صيغ، واسم الفاعل غير المفعول، واسم الآلة غير اسم المكان.

ولو قال أحدهم: (ينفع) بكسر الياء في مضارع "نفع"، فإنه يخالف القياس الصرفي، إذ أن بناء المضارع من الثلاثي يكون بفتح حرف المضارعة: (يَنفع).

و(الكوثر): اسم في اللغة للخير الكثير صيغ على زِنة فوْعل، وهي من صيغ الأسماء الجامدة غالباً نحو الكوكب، والجورب، والحوشب والدوسر، ولا تدل في الجوامد على غير مسماها، ولما وقع هنا فيها مادة الكَثْر كانت صيغته مفيدة شدة ما اشتقت منه بناء على أن زيادة المبنى تؤذن بزيادة المعنى، ولذلك فسره الزمخشري بالمفرط في الكثرة، وهو أحسن ما فُسر به وأضبطُه، ونظيره: جَوْهر، بمعنى الشجاع كأنه يجاهر عدوّه، والصومعة لاشتقاقها من وصف أصمع وهو دقيق الأعضاء لأن الصومعة دقيقة لأن طولها أفرط من غلظها.

ويوصفُ الرجل صاحب الخير الكثير بكَوثر من باب الوصف بالمصدر

- وقرأ الجمهور: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ بالعين؛ والحسن وطلحة وابن محيصن والزعفراني: أنطيناك بالنون، وهي قراءة مروية عن رسول اللهﷺ. قال التبريزي: هي لغة للعرب العاربة من أولي قريش. ومن كلامهﷺ: ((اليد العلياء المنطية واليد السفلى المنطاة)) ومن كلامه أيضاﷺ: ((وأنطوا النيحة)) وقال الأعشى:

جيادك خير جياد الملوك

تصان الحلال وتنطى السعيرا

قال أبو الفضل الرازي وأبو زكريا التبريزي: أبدل من العين نوناً؛ فإن عنيا النون في هذه اللغة مكان العين في غيرها

(٣٥) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: زهير جعيد، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م، ٨/ ٥١٧.

فحسن، وإن عنيا البدل الصناعي فليس كذلك، بل كل واحد من اللغتين أصل بنفسها لوجود تمام التصرّف من كل واحدة، فلا يقول الأصل العين، ثم أبدلت النون منها[٣٦].

و (الكوثر) على وزن (فَوْعَل) من الكثرة، وهو المفرط الكثرة[٣٧].

المبحث الرابع: المستوى الدلالي:

يتمثل المستوى الدلالي في المعنى المخصوص والطريقة الخاصة في الاستعمال لكل كلمة من كلمات اللغة، إذ يدرك المرء دون لبس المراد بكلمة (حِلم) و(حُلم)، وبين المراد بكلمة (فارع) وكلمة (رافع).

وفي سورة (الكوثر) أخذوا من وقوع الأمر بالنحر بعد الأمر بالصلاة دلالةً على أن الضحية تكون بعد الصلاة، وعليه فالأمر بالنحر دون الذبح مع أن الضّأن أفضل في الضحايا وهي لا تنحر وأن النبي ﷺ لم يضحّ إلا بالضأن تغليب للفظ النحر وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى يومَ النحر وليشمل الضحايا في البُدْن والهدايا في الحج أو ليشمل الهدايا التي عُطل إرسالها في يوم الحديبية كما علمت آنفاً. ويرشح إيثارَ النحر رَعْيُ فاصلة الراء في السورة. وللمفسرين الأولين أقوال أخر في تفسير (انحر) تجعله لفظاً غريباً.

ولا يستطيع إنسان أن يدرك معاني جميع الكلمات، فهو يجمع حصيلة واسعة حسب ثقافته وسعة اطلاعه واحتكاكه باللغة، ودليل ذلك أن قراءة نص قديم تضع الإنسان أمام عدة كلمات لا يدرك معناها.

وقد يختلف معنى الكلمة باختلاف البيئة واللهجات المحلية مما يؤدي إلى اللبس وسوء الفهم، ومن ذلك أن (مبسوط) في اللهجة المصرية ولهجات عربية أخرى تعني على المستوى الدلالي (مسرور)، أما في اللهجة العراقية فإنها تعني (مضروب ضربا شديدا)، ويمكن تأمل كلمة (انصرف) ومعناها في الفصحى

(٣٦) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٨/ ٥٢٠.

(٣٧) ينظر: تفسير جوامع الجامع، الطبرسي، تحقيق ونشر، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١ ١٤١٨ هـ، ٣/ ٨٥٥.

والعامية، و (قتل) في الفصحى والعامية.

وفي سورة (الكوثر) وردت لفظة (الأبتر): حقيقته المقطوع بعضه وغلب على المقطوع ذَنبه من الدواب ويستعار لمن نقص منه ما هو من الخير في نظر الناس تشبيهاً بالدَّابة المقطوع ذَنَبها تشبيه معقول بمحسوس كما في الحديث: ((كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر))، يقال: بَتر شيئاً إذا قطع بعضَه وبَتر بالكسر كفرِح فهو أبتر، ويقال للذي لا عقب له ذكوراً، هو أبتر على الاستعارة تشبيه متخيل بمحسوس شبهوه بالدابة المقطوع ذنبها لأنه قُطع أثره في تخيُّل أهلِ العرف.

ومعنى الأبتر في الآية الذي لا خير فيه وهو رد لقول العاصي بن وائل أو غيره في حق النبيﷺ فبهذا المعنى استقام وصف العاصي أو غيره بالأبتر دون المعنى الذي عناه هو حيث لمز النبيﷺ بأنه أبتر.

ومن هذا يتضح مدى تضافر المستوى الدلالي مع المستوى الصوتي في بيان حقيقة اللفظ ومعناه، وتبدو أهمية السياق في تحديد المعنى من أثر هذا التضافر، وذكر الزركشي في برهانه لطائف عجيبة ((ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة؛ فذكر هنا في مقابلة البخل: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ أي الكثير. وفى مقابلة ترك الصلاة (فصل) أي: دُمْ عليها. وفى مقابلة الرياء (لربك)، أي لرضاه لا للناس. وفى مقابلة منع الماعون: (وانحر)؛ وأراد به التصدق بلحم الأضاحي؛ فاعتبر هذه المناسبة العجيبة))[٣٨].

قال الجويني[٣٩]: لا يكاد اللغويون يفرقون بين الإعطاء والإتيان، وظهر لي بينهما فرق انبنى عليه بلاغة في كتاب الله، وهو أن الإتيان أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله، لأن الإعطاء له مطاوع، يقال: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإتيان آتاني فأتيت، وإنما يقال: آتاني فأخذت، [و] الفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له؛ لأنك

(٣٨) البرهان، الزركشي، ١/ ٣٩.
(٣٩) ينظر: (م. ن)، ٤/ ٨٥ -٨٧.

تقول: قطعته فانقطع، فيدل على أن فعل الفاعل كان موقوفا على قبول المحل، لولاه لما ثبت المفعول؛ ولهذا يصح: قطعته فما انقطع، ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك، فلا يجوز أن يقال: ضربته فانضرب أو ما انضرب، ولا قتلته فانقتل أو ما انقتل؛ لأن هذه الأفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحل، والفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها؛ فالإيتاء إذن أقوى من الإعطاء. قال: وقد تفكرت في مواضع من القرآن، فوجدت ذلك مراعى، قال الله تعالى في الملك: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [سورة آل عمران: ٢٦] لأن المُلك شيء عظيم لا يعطيه إلا من له قوة؛ ولأن المُلك في المِلك أثبت من المُلك في المالك؛ فإن الملك لا يخرج المُلك من يده، وأما المالك فيخرجه بالبيع والهبة. وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩] لأن الحكمة إذا ثبتت في المحل دامت. وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [سورة الحجر: ٨٧]، لعظم القرآن وشأنه. وقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ لأن النبي ﷺ وأمته يردون على الحوض ورود النازل على الماء، ويرتحلون إلى منازل العز والأنهار الجارية في الجنان، والحوض للنبي ﷺ وأمته عند عطش الأكباد قبل الوصول إلى المقام الكريم، فقال فيه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾، لأنه يترك ذلك عن قرب، وينتقل إلى ما هو أعظم منه. وقال: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: ٥٠]، لأن من الأشياء ماله وجود في زمان واحد بلفظ الإعطاء، وقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [سورة الضحى: ٥]، لأنه تعالى بعد ما يرضى النبي ﷺ يزيده وينتقل به من كل الرضا إلى أعظم ما كان يرجو منه، لا بل حال أمته كذلك، فقوله: ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ فيه بشارة. وقال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ [سورة التوبة: ٢٩] لأنها موقوفة على قبول منا، وهم لا يؤتون إيتاء عن طيب قلب، وإنما هو عن كره، إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون إعطاؤه للزكاة بقوة، لا يكون كإعطاء الجزية. فانظر إلى هذه اللطيفة الموقفة على سر من أسرار الكتاب!. وهذا بحدِّ ذاته يتطلب دراسة مستقلة نتبيَّن من خلالها

الوصول إلى حقيقة الفرق بين الإعطاء والإتيان في توجيه السورة وفهمها على نحو أفضل، الله تعالى أسأل ذلك، ومنه التوفيق والتسديد، والحمد لله.

الخاتمة:

النظام القرآني نظام مُحْكَم قدر تعلقه بالإعجاز على مدار الزمان واختلاف الحدثان، ويكمن هذا الإعجاز بالدرجة الأساس بمكونات النص اللغوية الصوتية والصرفية والتركيبية والبيانية والدلالية، وقد تضافرت هذه المكونات في انسجام منقطع النظير لبيان مواقع التلقي وفهم النص على نحو أمثل؛ لذا فهو جديد على كر الزمان والمكان.

وهذا النظام المعجز يظهر في كل آية من آياته الكريمة، وقد كشفت هذه الدراسة الأسلوبية لأقصر صورة في القرآن (الكوثر) عن مزايا هذا النظام في لفظ فصيح ومعنى بليغ وتركيب متماسك وسياق محكم، فضلاً عن العذوبة والجمال في بنية صوتية متفردة ومتنوعة تحدّث عنها علماء الدرس القرآني القدامى والمحدثون كلٌّ في اختصاصه، لكن الدراسات الأسلوبية الحديثة تناولت النص القرآني تناولاً كلياً لتخرج نفائس دفينة في اللفظ والمعنى والحكمة التي لا تنفد أبداً.

وهذا النظام المعجز هو من أسباب حفظ القرآن وصيانته منذ نزوله حتى يومنا هذا من دون تغيير أو تطور لفظي في نصه، فاللفظ ثابت، والمعنى متحرك، ذلك أن نظام القرآن يحتوي على جميع المتغيرات الزمانية والمكانية.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١. أسباب نزول الآيات، الواحدي النيسابوري، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢. الأنوار البهية، عباس القمي، جماعة المدرسين، قم، ١٤١٦هـ.

٣. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٣، (د. ت).

٤. الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ط١، ١٩٨٠م.

٥. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
٦. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م.
٧. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: زهير جعيد، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
٨. البيان في روائع القرآن، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.
٩. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م.
١٠. تفسير البيضاوي، البيضاوي، دار الفكر، بيروت، (د. ت).
١١. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، (د.ت).
١٢. تفسير الثعالبي، الثعالبي، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط١، ٢٠٠٢م.
١٣. تفسير القرطبي، تحقيق: مصطفى السقا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
١٤. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٢م.
١٥. تفسير جوامع الجامع، الطبرسي، تحقيق ونشر، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١ ١٤١٨هـ.
١٦. تفسير الميزان، الطباطبائي، منشورات جماعة المدرسين، قم، ١٤١٣هـ.
٧١. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٨، ١٩٨٣م.
١٨. الخصائص الفاطمية، محمد باقر الكجوري، ترجمة وتحقيق: سيد علي جمال أشرف، الشريف الرضي للنشر، إيران، ط١، ١٣٨٠ ش.
١٩. الدر المنثور في التفسير المأثور، السيوطي، دار الكتب العلمية،

بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
٢٠. الذرية الطاهرة النبوية، محمد بن أحمد الدولابي، تحقيق: سعد المبارك الحسن، الدار السلفية، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ.
٢١. الرعاية، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار الكتب العربية، القاهرة، (د. ت).
٢٢. سيرة ابن إسحق، محمد بن إسحق بن يسار، تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف، إيران، (د. ت).
٢٣. السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٦م.
٢٤. السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٣م.
٢٥. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٩٩٢م.
٢٦. ٢٦ –عين العبرة في غبن العترة، أحمد آل طاووس، دار الشهاب، قم، ط١، (د. ت).
٢٧. الفاصلة القرآنية، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٢م.
٢٨. الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م.
٢٩. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٦م.
٣٠. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
٣١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
٣٢. من أساليب التعبير القرآني، طالب محمد إسماعيل الزوبعي، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٣٣. من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٣م.